مستوى: السنة الأولى ليسانس أ. قلايلية

محاضرة مفهوم النثر في التراث النقدي

تمهيد:

دفعت حياة الجاهليين الشاقة العرب إلى القتال وشن الغارات والأخذ بالثأر، وقد شهدت أيامهم كثيرا من المفاخرات والمناظرات والمحاورات والخطب، وغير هذا من الألوان النثرية التي هي وليدة حاجة الطبيعي، وقد كان لهذه الظروف أثر واضح في الأدب الجاهلي بعامة، كما كانت تجر وراءها دواعي متعددة تجعل الجاهلي يفزع إلى النثر يحمله التحريض على القتال، وبث الحمية في النفوس ودفعها إلى القتال، كما يدعو فيه إلى السلم ويؤدي به واجب السفارات بين القبائل وما إلى ذلك.

1) مفهوم النثر

أ- **النثر في اللغة:** كلمة نثر من المصدر الثلاثي للفعل نَثَرَ بمعنى فرق، يقال نثر اللؤلؤ وقد انتثر وتناثر، والنقط نثار ونثارته وهو الفتات المتناثر حوله، ورأيته يتناثر الدّر إذ حاور بكلام ومنه الشيء وشتاته الذي تفرق.

ب- **النثر اصطلاحا:** النثر في الاصطلاح هو الكلام الذي لم ينظم في أوزان وقواف، وهو على نوعين: النوع الأول وهو النثر العادي الذي يقال في لغة التخاطب وليست لهذا النوع قيمة أدبية إلا ما يجري فيه من أمثال وحكم. وأما النوع الثاني هو النثر الذي يرتفع فيه أصحابه إلى لغة فيها فن ومهارة وبلاغة، وهو النوع الذي يعنى النقاد بدراسته والبحث فيه، وبيان ما مرّ فيه من أحداث وأطوار، وما يمتاز به كل طور من خصائص وصفات، ويتفرع إلى الخطابة والكتابة الفنية التي يسميها بعض الباحثين باسم النثر الفني وهي تشمل أشكال عدة نذكر منها: القصص والرسائل الأدبية والوصايا والمقامات والكتابة التاريخية المنمقة.

مستوى: السنة الأولى ليسانس أ. قلايلية

2) في أولية النثر على الشعر عند العرب:

ذهب الكثير من الأدباء القدامى والمحدثين إلى القول بأن النثر العربي أسبق في الوجود من الشعر العربي، فالمنطق يحكي ان العرب قالت النثر، ثم تطور النثر إلى سجع ثم إلى رجز، وهكذا حتى وجد الشعر، يقول ابن رشيق: "وكان الكلام كله منثورا فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها، وطيب أعراقها وذكر أيامها الصالحة، وأوطانها النازحة وفرسانها الأمجاد، وسماحتها الأجواد، لتهز أنفاسها إلى الكرم، وتدل أبناءها على حسن الشيم، فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام، فلما تم لهم وزنه سموه شعرا لأنهم شعروا به". وكأن ابن رشيق ينظر إلى المعنى العام الذي يكون لكل من الشعر والنثر فالشاعر يلتزم في شعره بوزن وقافية يجعلانه مقيدا منظوما، أما النثر فهو سهل المنال وأخف درجة في محاولة الكلام من الشعر، ولذلك ذهب إلى أن العرب قالت النثر ثم جاء الشعر مرحلة متطورة عن النثر.

ومن المحدثين من يرى أن النثر أسبق في الوجود من الشعر، وإليه تعزى البداية الحقيقية للأدب العربي، على الرغم مما قيل من أن النثر الجاهلي قليل جدا إذا ما قيس بالصحيح الثابت من الشعر الجاهلي، هذا فضلا عن قلة أصحاب النثر الجاهلي إذا ما قورنوا بالشعراء الجاهليين. يقول الدكتور محمد عبد القادر أحمد: "وعلى الرغم من أن النثر كان أسبق وجودا من الشعر وإليه تعزى البداية الحقيقية، وعلى الرغم من أن رجاله كانوا أكثر عددا من رجال الشعر إلا أن ما وصل إلينا منه يعد قليلا جدا بالقياس إلى ما وصل إلينا من شعر. ويمكن إرجاع ذلك إلى بعض العوامل منها أن الأمة العربية لم تدون نثرها ولم تقيد شعره، ويضاف إلى هذا السبب أن حفظ النثر أصعب من حفظ الشعر، فالشعر يساعد على حفظه وزنه وقافيته وما يتولد عنهما من جرس ونغم.

3) مفهوم النثر عند النقاد القدامى:

أ- **مفهوم النثر عند الجاحظ:** يُعد مفهوم النثر عند الجاحظ (في كتابه البيان والتبيين) فنّاً إبداعياً راقياً يقوم على "البيان" والقدرة على التأثير والإقناع، لا مجرد كلام مرسل.

مستوى: السنة الأولى ليسانس أ. قلايلية

يركز الجاحظ على "مطابقة الكلام لمقتضى الحال" (البلاغة)، ويجمع بين جودة الصياغة، ووضوح المعنى، والمنطق السليم، والابتعاد عن التكلف والسجع المتصنع .

ومن أهم ركائز النثر عند الجاحظ:

- البيان والتأثير: النثر عنده وسيلة للإقناع وإثارة الدهشة، يجمع بين متعة الأدب ورصانة الفكرة.
- مطابقة الكلام لمقتضى الحال: هو المبدأ الأساسي، حيث يُنزل الكلام على مقام المخاطَب (الخاصة بكلام الخاصة، والعامة بكلام العامة).
- طبيعة الأسلوب: اتسم أسلوبه بالسهولة، والسلاسة، والمزاوجة (نوع من التوازن الموسيقي دون سجع متكلف).
- التنوع الموسوعي: جعل النثر يشمل الخطابة، والرسائل، والنوادر (كتاب البخلاء)، والكتب العلمية المتأدبة (كتاب الحيوان).
- الشك والمنطق: أدخل النزعة العقلية الاعتزالية في النثر، معتمداً على "الشك" للوصول إلى اليقين، والمحاججة بالبرهان .

ب- مفهوم النثر عند الآمدي: ينظر إلى النثر عند الآمدي (في سياق نقده الأدبي) ككلام فني متفرق يخلو من قيود الوزن والقافية، يركز فيه على الذوق العربي، والبلاغة اللفظية، وجمال الأسلوب والبيان، متميزاً عن منهج "قدامة بن جعفر" المنطقي، ويشمل النثر الأدبي، والرسائل، والخطابة التي تعتمد على الانتقاء الدقيق للألفاظ والتأثير العاطفي .

أبرز ملامح مفهوم النثر عند الآمدي:

- التميز الفني والبلاغي: النثر عند الآمدي ليس مجرد كلام عادي، بل هو نثر فني يستخدم الأساليب البلاغية (التشبيه، الاستعارة) والمحسنات اللفظية (السجع، الجناس).
- التركيز على اللفظ: يُعد الآمدي من القائلين بأن البلاغة "للفظ" بشكل أساسي، مما يجعل جمال النثر عنده متعلقاً بجودة الألفاظ وتأليفها.

- الذوق العربي والروح العربية: منهج الآمدي النظري قائم على الذوق الأدبي الخالص والروح العربية وجمال اللغة، بعيداً عن التعقيدات العقلية الفلسفية.
- عناية خاصة بالنثر المرسل والرسائل: بالرغم من تركيز النقاد القدامى على الشعر، فإن التراث الذي ينتمي إليه الآمدي يثمن النثر الفني (الرسائل الديوانية والإخوانية) باعتباره نتاجاً للنخبة الأدبية .

ج) مفهوم النثر عند عبد القاهر الجرجاني: يرى عبد القاهر الجرجاني أن النثر، كالشعر، يعتمد على "النظم" وتآلف المعاني وفق قوانين النحو والسياق، لا مجرد اختيار الألفاظ. فالفصاحة في النثر عنده هي جودة التركيب وتناسب الكلمات في سياقها، مما يجعله يركز على الوظائف الدلالية والأسلوبية التي تحقق الإعجاز وتؤثر في المتلقي، متجاوزاً بذلك نظرة التفرقة التقليدية بين النثر والشعر القائمة على الوزن فقط .

أبرز ملامح مفهوم النثر عند الجرجاني:

- نظرية النظم: النثر الجيد لا ينبع من مجرد انتقاء مفردات حسنة، بل من "نظمها" أي ترتيبها وتنسيقها على مقتضى النحو (التأليف).
- دور النحو والسياق: يرتكز النثر عند الجرجاني على استثمار دلالات النحو (المعاني النحوية) مثل التقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، لخدمة المعنى وإيصال المراد.
- الجودة الفنية (الأسلوب): يقترب مفهوم "النظم" عند الجرجاني من مفهوم "الأسلوب" الحديث، حيث يمثل النثر الفني قدرة الكاتب على اتساق الألفاظ وتناسبها.
- المعاني المجازية: يركز على أن فصاحة النثر تظهر في استخدام الاستعارة والتمثيل، حيث يتشكل المعنى في صورة لفظية دقيقة .

مستوى: السنة الأولى ليسانس أ. قلايلية

خلاصة:

وفي الختام نخلص إلى أن النقاد العرب القدامى لم يعطوا للنثر ما أعطوا للشعر من العناية- فلسنا نجد في كتب النقد تلك الأبحاث المطولة في النثر على نحو ما فعلوا في درس معاني الشعر- إلا أنهم اهتموا بالبحث في فنون النثر، وأكثروا من الاستشهاد في كتبهم ببليغ ألوانه وإن كان جل اهتمامهم منصبا على إثبات شرفه ومكانته ومقارنته بالشعر، أو دراسة ما يحمله من قيم ومعان، ولا نعدم وجود الكثير من المحاولات التي هدف أصحابها إلى وضع بعض الضوابط التي تقوم فنونه أو تقديم توجيهات تعين على معالجته.